

منهج الرسول ﷺ في التكليف بالمهام واختيار القيادات



أ.د. السيد محمد الديب (١)

كان إعداد الرسول ﷺ للإنسان المسلم وفق ما نزل من الوحي الكريم عليه، مقتصرًا في بدايات الدعوة على من يلتقي بهم، ويتحدث إليهم منفردين، وفي أعماقهم الاستعداد والإرادة للانسلاخ من جاهلية الحياة التي يعيشونها في نطاق مكة المكرمة.

ولا كرامة إلا لذوي التقوى، قال تعالى:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾

(الحجرات: ١٣)

وكانت أعداد المسلمين في تكاثر، خلال السنوات الثلاث التي كانت الدعوة فيها سرًا، ولم تعد دار الأرقم كافية لهم، ثم أخذت الدعوة حيزًا من الإعلان الذي لم تتوقف معه رسالة النبي ﷺ عن تأكيد نصائحه لهم بالترابط والتماسك وعدم الفرقة في ضوء قوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»^(١).

ذلك أن التحول بالمبادئ والقيم إلى منهج حياة، وأسلوب تعامل كان تميزًا وانعتاقًا من الضلالات الاجتماعية المكشوفة والمرفوضة، في ضوء المبادئ والأخلاق للدعوة الجديدة،

(*) الأستاذ بجامعة الأزهر.

(١) البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

وكانت دعوة الإسلام للحرية والكرامة والمساواة - وعدم التفريق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى - عوامل باعثة على إقبال الفقراء والمساكين والأرقاء إلى الإسلام، فكان معظم المسلمين الأوائل منهم.

بداية إعداد الرسول ﷺ لأصحابه:

بدأ الرسول ﷺ في تفعيل دعوته الجديدة بصورة جماعية مباشرة منذ الالتقاء بهم سرًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم على جبل الصفا، تلك الدار التي عُرفت في وقت لاحق بدار الإسلام، ووصلت أعدادهم إلى قرابة الثلاثين، وكان ما نزل من القرآن الكريم هو الزاد المَعِين والمنهج القويم، الذي سار الرسول ﷺ على أضوائه مع هؤلاء الأوائل، حيث بدأ تكوينهم على الأخوة الجديدة، التي تُسقط فوارق النسب، وتُذيب العصبية الممقوتة، إذ لا فضل



مجالات الاختيار والتكليف:

الاستشارة:

كان الرسول ﷺ يستشير الكثيرين من أصحابه في العديد من أحوال الدنيا والأمور التي تختص بأساليب التعامل مع الآخرين، وكذلك في الكثير من أوضاع الجهاد الحاصل في الغزوات والسرايا والمهام المحددة، سواء أكانوا مع الرسول ﷺ، أو كانت وجهتهم تحت إمرة بعض الصحابة -رضوان الله عليهم- وحدث ذلك عند هجرة المسلمين إلى الحبشة، وفي أحوال غزوة بدر وغيرها.

وكان أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب -رضي الله عنهما- أبرز من يستشيرهم الرسول ﷺ في العديد من المهام، وكانا بمثابة مستشارين له، ذلك أن دعائم اختيارهما كثيرة استشعرها الصحابة في عهد الرسول ﷺ بعد وفاته، إذ كان أبو بكر أول من أسلم من الرجال، وكثير الخبرة والتجربة في الحياة، وقريباً من الرسول ﷺ في العمر، وأشهر من صدقه في أمر الإسراء والمعراج.

وكان عمر قد أسلم بعد عدد من الرجال والنساء، وتميز بالجرأة العالية والشجاعة النادرة، وكان إسلامه تحولاً بمسيرة الدعوة؛ إذ استطاع المسلمون الأوائل أن ينتقلوا بالعبادة من السرية إلى الجهرية، قال عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: «مازلنا أعزة حتى أسلم عمر»^(٢).

وكان الرسول ﷺ يُكثر من استشارة أبي

(٢) ابن حجر (فتح الباري) (٣٦٨٤)، ج ٧، ص ٥١.

وكان هؤلاء السابقون الذين أنار الرسول ﷺ لهم طريق الإسلام هم الذين أسهموا في معاونته بقبول تكليفاته لهم داخلياً وخارجياً منذ الإعداد للهجرة إلى المدينة المنورة.

دلالات منهج الرسول ﷺ في الاختيار

للمهام:

بدأت طبائع الصحابة وسمات شخصياتهم في التجلي والوضوح للرسول ﷺ منذ زيادة التلاقي بهم والتحاور معهم والتعرف على قدراتهم، وعلى كامل مستوياتهم من الإيمان والتقوى، وقوة الإخلاص للدعوة والتحمس لها، والدفاع عنها، وكيفية التصرف في إنهاء المشكلات، التي يمكن أن تنشأ في خلاف على أداء عبادة أو توجيه لمبتدئ حديث عهد بالإسلام وما شابه ذلك، كما أن مستويات الحفظ للقرآن الكريم والسنة النبوية، ومخاطبة الآخرين بالكلام معهم والرد عليهم، تختلف من واحد لآخر، فتبقى لكل شخصية خصائصها ومميزاتها مع التقارب بين الكثيرين في الأمور التي تشملهم جميعاً، إضافة إلى الموهبة المتفردة والكفاءة البارزة والخبرة المتجددة، وقوة الإرادة والثقة بالنفس، والقدرة على القيادة، وعلى الإفتاء في الحلال والحرام، وزيادة العلم والفهم وحسن التعبير عن الإسلام، واتساع المهارة في المبارزة والقتال، وسائر المجالات التي تختلف مستوياتها بين مسلم وآخر، والتي لا تجتمع كلها في رجل واحد؛ ولذا يكون الاختيار للمهمة وفق الخصائص التي تميز بها من يختار لها.





على من شارك في الترتيب لبدء الرحلة إلى أن وصلت إلى قباء على أطراف المدينة المنورة. (ب) تولى علي بن أبي طالب كثيرًا من المهام المتعددة المجالات، فقد تولى القضاء مع غيره، وأسهم في كتابة الوحي، وتجلت شجاعته في غزوة بدر وغيرها.

أما المهمة التي تُعدُّ مفخرةً وتخليدًا لأبرز التكليفات النبوية فكانت ليلة الهجرة، حيث نام في فراش الرسول ﷺ، ليوهم شباب قريش أن النبي ﷺ لم يبرح بيته، كما أُسندت إليه مهمة ردِّ الأمانات التي كانت بحوزة الرسول ﷺ إلى ذويها، ولعلي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قرابةٌ وصلَّةٌ قويةٌ بالرسول ﷺ وهو شاب ذو جرأة وإقدام على مواجهة المهام الخطرة، فضلًا عن سبِّقه إلى الإسلام وحبه للرسول ﷺ، واستعداده للدفاع عنه من الاعتداء عليه بعد الخروج من بيته ﷺ.

(ج) لقد اختار الرسول ﷺ عثمان بن عفان -رضي الله عنه- ليكون نائبًا عنه، وممثلًا له في دخول مكة لإتمام عمرة الرسول ﷺ ومن معه من الصحابة الأجلاء، وذلك قبل الشروع في إتمام صلح الحديبية، والذي كان انتصارًا معنويًا للمسلمين.

وتاريخ عثمان بن عفان في بداية الإسلام داعمٌ لهذه الوفادة، التي تتوافق مع طبائعه -رضي الله عنه-؛ إذ كان ذا قدرة تفاوضية وصاحب ثروة ضخمة ألت إليه من أبيه، وتميز بالحياء إذ تستحي منه الملائكة، وكان عند تكليفه بهذه المهمة متزوجًا من ابنة الرسول

بكر مع ميله إلى اللين، واستشارة عمر مع ميله إلى الشدة حسب المواقف والمتطلبات، وقد استشارهما في التعامل مع أسرى بدر، وكان رأي كل منهما مختلفًا عن الآخر، مما يدعم حرية الرأي المتاحة في هذه المرحلة المبكرة من عمر الدعوة الإسلامية.

الاختيار لبعض المهام:

كان الرسول ﷺ يختار لكل مهمةٍ أنسبَ الموجودين لها، وتجلَّى ذلك في كامل حياته مع اختلاف كل مهمة عن الأخرى، فيكون الاختيار للأصلح لها، وفق مرئيات الرسول ﷺ، واستشارة بعض الصحابة؛ لدعم الرأي وتأكيد سلامة الاختيار.

(أ) كان أبو بكر الصديق ذا أولوية في الاختيار للعديد من المهام، حيث يقترب من الرسول ﷺ في زمن الحياة، ولكثرة تجاربه التي جعلته مختارًا ليكون رفيقًا للرسول ﷺ في الهجرة إلى المدينة المنورة، فهو أنسب الصحابة لتلك المهمة المتفردة، التي تحتاج إلى رفيق ذي خبرة طويلة في التعامل مع الأزمات التي يمكن أن تنشأ في السفر الطويل بالصحراء، وتحتاج إلى الصبر على المتاعب والصعاب.

وكان -رضي الله عنه- داعمًا ماديًا لتكاليف الهجرة، وموفقًا في ترشيح دليل السفر، وانتقاء الدابتين اللتين ستخصص إحداهما للرسول ﷺ، والثانية لأبي بكر ورديفه وهو مولاه عامر بن فهيرة، كما خضع الإعداد للهجرة والاختيار للرفيق إلى السرية والكتمان، واقتصار المعرفة



الحال جاء عبد الله بن زيد بن ثعلبة-رضي الله عنه- فقال: «يا رسول الله إني طاف بي هذه الليلة طائف؛ مرّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر...»^(٥) إلى آخر الأذان. ثم قال الرسول ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألقها عليه فليؤذن بها فإنه أندى صوتاً منك»^(٦).

وسمع عمر بن الخطاب أذان بلال، وجاء إلى الرسول ﷺ وأخبره أنه رأى مثل تلك الرؤيا، فحمد رسول الله ﷺ وتعالى على ذلك، ولم ينهض بهذه المهمة عبد الله بن زيد، الذي كان أول من رأى الرؤيا، والذي انتهى دوره عند إعلام الرسول ﷺ، كما لم تستند إلى من رغب فيها من المسلمين، وإنما أسندها الرسول ﷺ إلى بلال بن رباح الذي كان موهوباً من الله تعالى بجمال الصوت وحسن الأداء وكان لمهارته أصلح من ينهض بهذا التكليف، ولم يقف سواد بشرته ولا رقة القديم حائلاً دون ذلك، كما كان ابن أم مكتوم مؤذناً ثانياً للرسول والمسلمين في المدينة المنورة.

الدعوة إلى الإسلام والقدرة على الإقناع:

كانت الدعوة إلى الإسلام بالمدينة المنورة قبل الهجرة مهمة لا يقدر عليها إلا من أوتي

رسول الله ﷺ السيدة أم كلثوم -رضي الله عنها-، كما كان من كُتّاب الوحي وأحد العشرة المبشرين بالجنة مع هدوء طبعه وعدم انفعاله، وقال الرسول ﷺ بحقه: «لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان»^(٣).

وقد كان مسبوقاً في القيام بهذه الوفادة بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب، التي عرضها الرسول ﷺ عليه، بصفته مستشاراً ثانياً له، فكان الآتي التي ذكرته السيرة النبوية إذ قال عمر: «يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدّي بن كعب أحدٌ يمنعي، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكنني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشرف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظماً لحرمة»^(٤).

وقام عثمان -رضي الله عنه- بمهمته، وبلغ رسالة النبي ﷺ إلى من كان بمكة من المسلمين، إلى غير ذلك من المهام التي وفق فيها، حتى أوصلت إلى صلح الحديبية.

الأذان:

كان الرسول ﷺ وأصحابه منشغلين بالبحث عن وسيلة ينادون الناس بها للصلاة، إذ كانوا يجتمعون لها حين مواقيتها بغير دعوة، وقال بعضهم باتخاذ بوق كبوق يهود يدعون به إلى صلاتهم، ولما كانوا في تلك

(٥) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٦) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٣٢٣.

(٣) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٦٨٠).

(٤) السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٢٣٤.





رفعه: «أرحم أمتي أبو بكر...» وفيه: «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ»^(٧)، وكان عالماً مشهوداً له في الفقه، ورائداً في العلم والتعليم والتوجيه والإرشاد، وكان كثير الصمت لإغراقه في التأمل والتفكير، وله قدرة على الاجتهاد والإفتاء والقضاء وتحفيظ الناس القرآن وشرائع الإسلام وإرشادهم إلى الحلال، ونهيهم عن الحرام.

وكان بعث معاذ إلى اليمن يختلف عن سفارة مصعب إلى المدينة، إذ كان الإسلام منتشراً بين الكثيرين من أهل اليمن بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجا، ورغب الرسول ﷺ في قياس مستوى المعرفة لمعاذ -رضي الله عنه- في الإفتاء والقضاء، فروى (معاذ) متحدثاً إلى الرسول ﷺ قال: «لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لي: بم تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد، قال بسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد، قال اجتهد رأيي ولا ألو^(٨)» قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي الله ورسوله»^(٩).

وبقي معاذ في مهمته إلى خلافة عمر -رضي الله عنهما- حيث عاد للمشاركة في الفتوح الإسلامية بالشام.

دليل الهجرة النبوية:

لم تتوقف اختيارات الرسول ﷺ للمهام

(٧) قال ابن حجر: رجاله ثقات. (فتح الباري ج ٧، ص ١٥٧).

(٨) لا ألو: لا أقصر.

(٩) رواه أبو داود (٣٥٩٢) / ٥ / ٤٤٤، والترمذي (١٣٢٧) / ٣ / ٦٠٨،

وأورده ابن سعد في الطبقات، ج ٣، ص ٥٩٤.

قدرة فائقة على التبشير بدين جديد في بيئة واعدة، تتنازع السيادة عليها أطراف متحاربة، وتدير حركة المال بها قبائل متعددة من اليهود.

وقد وجد الرسول ﷺ في مصعب بن عمير خصائص فارقة تجعله مقدماً ليكون سفيره إلى المدينة المنورة، فله قدرة نقاشية في الحوار يستطيع بها أن يدعو الناس إلى الإسلام في هدوء واتزان، وكان على درجة كبيرة من الحفظ لما نزل من القرآن الكريم، يستطيع به أن يؤم الناس في الصلاة، ويعلمهم أمور دينهم، ويأخذ بأيديهم إلى المستقبل الجديد، ونهض بما أسند إليه في إرشاد أهل الأوس والخزرج إلى قراءة القرآن وشرح الحديث النبوي، والعمل بما جاء فيهما، وشرح العقيدة، وإيضاح المنهج الإسلامي من خلال العبادات والمعاملات والأخلاق، إلى غير ذلك من مفردات هذا المنهج، الذي التزم به تشريعاً وتطبيقاً، وقد وفق في مهمته، وعاد بعد عام ومعه عدد من المسلمين للعبادة والالتقاء بالرسول عليه الصلاة والسلام.

الإفتاء والقضاء:

تعددت الدعامات لاختيار معاذ بن جبل -رضي الله عنه-؛ ليكون مبعوثاً من الرسول ﷺ إلى اليمن في السنة التاسعة من الهجرة بعد غزوة تبوك؛ فقد كان من أبرز قراء القرآن الكريم، ومن العلماء المتميزين في الأحكام الشرعية.

وقد أخرج الترمذي وابن ماجه عن أنس



بعد فتح مكة، كان ذلك خاضعاً للعديد من الاعتبارات، منها: الشجاعة والكفاءة، والقدرة على التوجيه والتنفيذ، وتغيير الخُطط بالتقدم أو التمرکز وفق المستجدات في ساحة القتال وأماكن التوجيه للاستطلاع وبعث الوفود واستقبال الردود، وقد كانت المفاضلة بين القيادات بفوارق بسيطة فأكثر المجاهدين كانوا أبطالاً في الجهاد حسب متطلباته وأحواله.

ومن أبرز هؤلاء القادة: عليّ بن أبي طالب صاحب المسيرة الخالدة في كافة مجالات الدعوة والجهاد وُصولاً إلى فتح خيبر التي أدار الرسول ﷺ أيام القتال واقتحام الحصون بها، وقد قال ﷺ بحق عليّ -رضي الله عنه-، الذي سلمه راية الحرب فيها: «لأعطينَ الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»^(١١).

أما خالد بن الوليد فمع أنه تأخر إسلامه إلى السنة الثامنة من الهجرة، لكن عبقريته كانت جليّة واضحة للمسلمين من قبل أن يدخل في زمرتهم، وكانت غزوة مؤتة أول موقعة شهدها، وهو مقاتل بين الصفوف، إلى أن أصيب القادة الثلاثة المختارون من الرسول ﷺ وهم: زيد ابن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وقد أوصى الرسول ﷺ المشاركين الخارجين إلى مؤتة إن أصيب القادة الثلاثة أن يرتضي المسلمون من يوؤونه قائداً عليهم، ووقع الاختيار على خالد بن الوليد، والذي

(١١) البخاري (٢٩٧٦) ٤ / ٥٤، ومسلم (١٨٠٧) ٣ / ١٤٣٣، واللفظ له.

عند المسلمين، وإنما اختار رجلاً غير مسلم؛ ليكون دليلاً له ولأبي بكر الصديق في الهجرة إلى المدينة، إذ كان تكليفه -وهو على غير الإسلام- ضرورة. قال تعالى:

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾

(القصص: ٢٦)

وقد رفع الرسول ﷺ من شأن أهل الخبرة والمعرفة في أحوال كثيرة.

وجاء ترشيح الدليل للهجرة وهو عبد الله بن أريقط من قبل أبي بكر -رضي الله عنه-، وأفاد الاستخبار عنه ما يعضد اختياره لهذه المهمة؛ إذ كان الرجلُ خبيراً بطرق الصحراء، وأميناً في قبول المهمة، وذا كفاءة في الأداء؛ ولذا تقدّم اختياره على بعض الصحابة، الذين يعرفون كثيراً من طرق الصحراء، ولكن ليس بخبرة ابن أريقط، والذي جاء تكليف الرسول ﷺ له مرتين بكل موقف يتطلبه الرحيل، حفاظاً على ما تبقى من الأسرار، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «... واستأجر النبي ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الدّيل ثم من بني عبد بن عدي هادياً خريئاً...»^(١٠). وللحديث بقية تعضد ترشيح أبي بكر واختيار الرسول ﷺ لهذا الرجل البصير بأسرار الطرق والمنافذ في الليل والنهار عند الهجرة للمدينة المنورة.

الاختيار للقادة المجاهدين:

كان اختيار الرسول ﷺ لقادة المعارك الإسلامية والسرايا، والتي تزايدت أعدادها

(١٠) فتح الباري شرح صحيح البخاري (٢٢٦٣). والخريّة: الماهر بالهداية.





في قوله: «استقروا القرآن من أربعة: عبد الله ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل»^(١٢).

ولم يكن العدد كبيراً في التكليف بكتابة الوحي، فأبرز من أسندت إليه هذه المهمة الصعبة: عثمان بن عفان، وعلي بن طالب، ثم يأتي بعدهما أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، هذا الذي كان ذا كفاءة عالية ومهارة فائقة، فقد شارك في جمع القرآن الكريم وكتابته، وكان مترجماً للرسول ﷺ، إذ تعلم اليهودية في أربعة عشر يوماً، والسريانية في سبعة عشر يوماً، فضلاً عن تعلمه للغة الفارسية.

أما القضاء فقد تولاه عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل -رضي الله عنهم- جميعاً.

وقد اختار الرسول ﷺ عدداً من أصحابه ليكونوا رؤساً له لحمل رسائله وإيصالها إلى الملوك والرؤساء والأمراء، ومن هؤلاء المكلفين: دحية بن خليفة الكلبي، الذي بعثه الرسول ﷺ برسالة إلى قيصر ملك الروم، فقد كان ذا طلع بهية وحنكة «دبلوماسية» ومعرفة لغوية غير عربية تعينه على أداء مهمته لتحقيق أفضل النتائج والمستهدفات، فالمهام كثيرة والنجاحات بارزة، تلك التي كانت بدايات موفقة لتأسيس الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(١٢) البخاري (٣٨٠٦) فتح الباري، ج ٧، ص ١٥٧.

ظهرت مهارته في وضع خطة للانسحاب المأمون؛ حتى لا يُفني الجيش، الذي لا تقارن أعداده القليلة بما كان عليه جيش الروم، وتأكدت مهارة خالد -رضي الله عنه-، الذي لقبه الرسول ﷺ بسيف الله المسلول، وكلفه بالقيادة في الكثير من المهام.

أما أسامة بن زيد فكانت محبة الرسول ﷺ له امتداداً لمحبه لأبيه زيد بن حارثة، وكانت لأسامة القوة والشجاعة، والقدرة على مخاطبة الرسول ﷺ ومراجعته، وقد وجد ﷺ في شخصيته الشاب صلاحية، لأن يكون قائداً لجيش يتحرك به إلى موضع غزوة مؤتة، التي استشهد فيها والده (زيد) وتأديب من يستحق العقاب، ولم يرتض بعض الصحابة إمارة أسامة لهذا الجيش؛ لوجود بعض القادة الذين يكبرونه، ولم يتراجع الرسول ﷺ عن قراره الذي خضع فيه؛ لاعتبارات مؤهلة مع أنه ﷺ كان على أبواب مرض موته؛ إذ كان أكثر دراية وإماماً بالموقف على إجماله، وتوفي ﷺ دون أن يتحرك الجيش إلى مهمته، إلى أن سيره أبو بكر الصديق بقيادة أسامة الذي نجح في مهمته وحقق المستهدف من هذا التكليف.

مهام متعددة:

قراءة القرآن وكتابته: سارع أصحاب الرسول ﷺ إلى قراءة القرآن وتعلمه ومعرفة معانيه، وكانت المرجعية في القراءة إلى أربعة منهم، حددهم الرسول ﷺ بأسمائهم، وذلك

